طلال أبو غزالة

رجل الأعمال المؤتمن على حقوق الملكية الفكرية
في الوطن العربي يحكي سيرة مشواره.

نور الصالح Noor AlSaleh

في أروقة مجموعة طلال أبو غزالة التي تُعد واحدة من أكبر مجموعات الشركات في العالم، يسمونه «المعلم». فهذا هو اللقب الأحب إلى مؤسس المجموعة الدولية ورئيسها، والتي تشكل مجموعة عالمية للخدمات المهنية والتعليم، وتتوزع مكاتبها في مختلف أنحاء العالم. وإن كان اسم طلال أبو غزالة قد لمع في سماء الاقتصاد والتجارة والسياسة والمعرفة حتى أصبح واحدًا من الشخصيات الخمسمائة الأكثر شهرة في أوساط رجالات المال والأعمال العرب، فضلاً عن تمثيله منظمات عربية ودولية مختلفة، فإن هذا الرجل لا ينفك يفاخر بوصف نفسه بالطفل الفلسطيني اللاجئ.

مجلة Robb Report العربية التقت طلال أبو غزالة في العاصمة الأردنية، عمّان، في مقره الزاخر بحكايات نسجت فصولها آلاف الصور المعلقة على الجدران في الممرات وصولاً إلى مكتبه الخاص. بعض الحكايات تشي بروحية رجل لديه يقين راسخ بألا شيء يجمّل الإنسان غير علمه ومعرفته، ولديه شغف مستدام بالجد والعمل الدؤوب حد قوله: «حتى إذا كانت وظيفة المرء كنس الشوارع، يجدر به أن يكرس طاقاته كلها لأجل ذلك. يجدر به أن يكنس الشارع بمثل ذاك الاهتمام الذي كان مايكل أنجلو يوليه للوحاته، أو بيتهوفن لموسيقاه، أو شكسبير لمؤلفاته. وعندئذ، لا بد أن يرى الآخرون روعة ما أنجزه».

ماذا يستحضر طلال أبو غزالة من ذاكرة الطفولة؟

ولدت في يافا عام 1938، وكان والدي توفيق سالم أبو غزالة جنديًا في الجيش العثماني قبل أن يتحول إلى العمل في مجال التجارة. وأذكر أني كنت متميزًا عن إخوتي رغم صغر سني. كان والدي يتوسم خيرًا فيّ ويقول لي دومًا: «أنت أب لأفراد هذه العائلة ومسؤول عن كبيرهم وصغيرهم». وقد واظبت طيلة حياتي على تحقيق مقولته. لا أذكر أني قضيت طفولتي في اللهو واللعب كباقي الأطفال.

كيف تتذكرون والدكم اليوم؟

كان والدي أميًا لا يجيد القراءة والكتابة، لكنه في المقابل يمتلك سمات الرجل الشرقي. وأذكر أننا كنا وإخوتي نقف كالتلاميذ في حضوره ولا نجلس إلا حين يأذن لنا بذلك. ولطالما كان والدي يوصيني بالتجارة قائلاً إن التجارة ثلثا الإمارة. أذكر أيضًا أنه كان يوقظنا في الصباحات مناديًا «كاك همشري» وهي عبارة تركية تعني «استيقظوا أيها الجنود». كان يحثنا على الاستيقاظ باكرًا ويقول: إن الله يوزع الأرزاق قبل بزوغ الشمس. لقد علمني والدي الحكمة، والتعامل بإيجابية مع الأزمات وتحويلها إلى متعة. وهأنذا اليوم أمارس العبر التي أخذتها عنه في عملي.

من أين بدأ مشوار نجاحاتكم المتميزة؟

كنت في العاشرة من العمر عندما هاجرت مع عائلتي من فلسطين إلى بيروت، لأتحول إذ ذاك في لحظة واحدة إلى لاجئ هُجِّر من أرضه وما عاد يمتلك أي شيء. وإذ رحت أفكر كيف أحول نقمتي إلى نعمة، أدركت أنه لا طريق لعودتنا إلى وطننا غير طريق التفوق العلمي والحضاري والإبداعي، وقررت أن أبني مؤسسة عالمية فلسطينية تثبت للعالم أننا شعب يستحق الحياة. وقد تحقق حلمي هذا بالفعل في عام 2001 عندما شغلت منصب عضو في فريق الأمم المتحدة لتقنية الاتصالات والمعلومات ثم رئيسًا للفريق. وقد توجهت آنذاك بالشكر إلى المجتمع الدولي قائلاً: «أشكركم لانتخابي رغم معرفتكم المسبقة بأنني فلسطيني أردني عربي مسلم».

كيف للمعاناة أن تقود للنجاح؟

برأيي أن وراء المعاناة متعة تتجلى في بلوغ الهدف المرجو من خلال العمل. أنا شخصيًا وجدت المعاناة التي اختبرتها انتصارًا على ظروفي. فقد كان طموحي، على سبيل المثال، أن ألتحق بالجامعة الأمريكية في بيروت. كانت منظمة الأونروا، آنذاك، قد خصصت منحة جامعية للاجئ فلسطيني واحد، وكان

خادم الحرمين الشريفين، الملك سلمان بن عبدالعزيز، يسلم قبل سنوات، بحضور الأمير محمد ابن سلمان، ولي ولي العهد، إحدى الجوائز لطلال أبو غزالة.

الشرط الوحيد لفوزه بها هو أن يحقق المرتبة الأولى في صفه، وهذا ما فعلته تحديدًا حتى حصلت على المنحة. كما أن معاناتي أجبرتني على دخول سوق العمل في عمر مبكر، فعملت في بيع المثلجات، وفي مجال الحسابات المالية، وفي سوق الخضار، ثم في محل لبيع الأسطوانات الموسيقية، ما شكل مدخلاً لي إلى حب الموسيقا وتعلم أصولها. بل إن مختلف المهن التي عملت فيها قد جعلتني أقابل أشخاصًا مختلفين وأعيش تجارب متنوعة ساهمت في توسيع آفاقي.

أي المحطات المفصلية أحدثت تغييرًا جذريًا في مسيرتكم المهنية؟

طرأ التغير الأبرز عندما انتقلت سنة 1960 للعمل في الكويت. عملت آنذاك مع شركة سابا، وأذكر أني كنت أهرب من حر البيت إلى المكتب حيث أمضي يوميًا ما يزيد على ثماني عشرة ساعة، ما أكسبني الخبرة والتمرس اللذين مهدا لي الطريق للنجاح. وإذ خطرت لي فكرة تأسيس شركة خاصة بي، انضم إليَّ عدد كبير من الموظفين ممن كانوا يعملون معي بالرغم من عدم مقدرتي آنذاك على دفع أي رواتب لهم. وفي عام 1972، استمعت في سان فرانسيسكو إلى خطاب يتناول موضوع الملكية الفكرية، فقررت تأسيس شركتين هما «طلال أبو غزالة للمحاسبة» و«أبو غزالة للملكية الفكرية». مكثت في الكويت ثلاثين عامًا، وأنا أرى أن جذور شركتي كويتية وستبقى كويتية.

أي أسلوب إداري تتبعونه للإمساك بزمام مؤسساتكم المنتشرة في أنحاء مختلفة من العالم؟

سعيت من البداية ليس إلى إنشاء شركة ناجحة، وإنما إلى بناء مؤسسة وضعت لأجلها نظمًا وسياسات وإجراءات رقابية تجعل مستوى الأداء فيها أفضل في غيابي منه في وجودي. ومن هنا، أدير مؤسساتي من خلال التقارير التي أتسلمها وليس من خلال إمساكي بسلطة الإدارة.

> سعيت من البداية ليس إلى إنشاء شركة ناجحة، وإنما إلى بناء مؤسسة وضعتُ لأجلها نظمًا وسياسات وإجراءات رقابية تجعل مستوى الأداء فيها أفضل في غيابي منه في وجودي.

بمعنى آخر، تدير كل مؤسسة من مؤسساتي أعمالها بنفسها ويرأسها شخص مسؤول مفوض من قبلي وله كامل السلطة فيها.

ما الذي يضمن للشركات ذات الطابع العائلي النجاح والاستمرار؟

لا بد لتحقيق ذلك من طريق احترام ثلاثة مبادئ أساسية، أولها: فصل العلاقة الأسرية عن العلاقة بين أفراد العائلة الواحدة داخل بيئة العمل. فابني مثلاً قد تجاوز الخمسين من عمره ويناديني «سيدي» في مقر العمل. كما أنه يحتاج إلى موعد مسبق من مدير مكتبي إذا أراد مقابلتي. ثانيها: من الضروري التمييز ماليًا بين أفراد الأسرة العاملين في الشركة وأولئك الذين اختاروا توجهًا آخر. فهؤلاء لا ينبغي حرمانهم

طلال أبو غزالة في صورة مع العاهل الأردني الملك عبدالله الثاني بن الحسين، والملك حمد آل ثاني ملك البحرين خلال حضورهم زفاف الأمير راشد بن الحسن.

من حقوقهم المالية كأفراد في عائلتنا، لكنهم لا يتقاضون رواتب على غرار من يعمل في الشركة. أما المبدأ الأخير، فيتمثل في إدارة شؤون الشركة بأسلوب مهني على أساس الكفاءة وليس لأنها ملكية عائلية.

ما سر حرصكم الدائم على إبراز تميز الإنسان العربي؟

نجح العرب في فرض نفوذهم على أجزاء كبيرة من العالم على مدى يزيد على 500 عام. ومن المعروف أن الإنسان العربي هو أصل مختلف العلوم والفنون والحضارات الأساسية في العالم. فهو أول من بدأ العلوم الطبية، وأول من بدأ علم المحاسبة. أولى سجلات المحاسبة المالية اكتُشفت في بلاد الرافدين في العراق، وأول خزنة مالية أنشئت كانت في البتراء. بل إن شبكة الإنترنت ما كانت لتصبح واقعًا ملموسًا لولا ابتكار العرب للرقم صفر. وأنا على يقين تام بأن جينات العرب متميزة، وبأنهم يومًا ما سيتفوقون مجددًا ويضطلعون بدور قيادي.

تشغلون مناصب مختلفة تنطوي بلا شك على مهام كثيرة. فمتى يتسنى لكم وقت لكي تختلوا بأنفسكم وتنعموا ببعض الراحة؟

إني أجد راحتي في عملي. فقدرات العقل تضعف عندما يكف المرء عن التفكير. ولا أخفي أني أميل الى الاستماع إلى السمفونيات الكلاسيكية، لا سيما إذا أردت استعادة صفائي الذهني. فهذا النوع من الموسيقا يشعرني بالراحة النفسية، ويساعدني على التفكير في حل لمعضلة ما، أو موقف مقلق في العمل.

هل تجدون في جدول أعمالكم المزدحم فسحة لممارسة الهوايات؟

هوايتي هي القراءة، ولكني لا أجد مع الأسف وقتًا كافيًا لمطالعة مؤلفات الأدب والشعر التي تفتنني. في المقابل، أواظب على اكتساب علوم ومعارف جديدة، وهذه عادة غرسها في نفسي خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز. فأنا لم أصادف على مر عمري قارئًا نهمًا بقدر جلالته، وقد علمني أن أقرأ بغية اكتساب المعرفة وليس بهدف التسلية، فصرت أخصص، إلى جانب مهام عملي، أربع ساعات يوميًا للقراءة.

ما الذي يشغلكم حاليًا؟

أنا منهمك في وضع مؤلف حول مستقبل البشرية في ظل ثورة تقنية المعلومات والاتصالات. أحاول أن أصيغ في كتابي تصورًا لما سيكون عليه العالم بعد خمسين سنة بالاستناد إلى ما يقوله العلماء وما تبينه الدراسات.

من خلال أسفاركم الكثيرة، أي المدن تركت أثرًا بالغًا في وجدانكم؟

يبقى للكويت الأثر الأبلغ في نفسي. فسبب نجاحي يُعزى إلى الكويت وما حظيت به في رحابها من رعاية من قبل العائلة الحاكمة والشعب الكويتي على حد سواء. ولا أخفي أن الأعوام التي أمضيتها في الكويت تشكل المرحلة الأهم في حياتي وفي مسيرة مؤسستي، وتُعد الأعز على قلبي.

ما هي السعادة عندكم؟

تكمن السعادة في محبة الآخرين لنا. لا قوة في العالم تضاهي قوة الحب الذي يشكل عنصرًا أساسيًا لنجاح المرء في حياته العائلية ومسيرته المهنية على حد سواء. أنا شخصيًا حظيت دومًا بمحبة إخوتي وأصدقائي. ولأن موقعي اليوم شخصية عامة، يسعدني ما ألمسه لدى الآخرين من مشاعر المحبة تجاهي. بل إني نجحت في أن أبني شبكة واسعة من الأصدقاء في مختلف بقاع العالم، علمًا بأن ما يربطنا هو صداقة قائمة على مشاعر المحبة الفعلية وليس على تبادل المصالح. أرى أن قوة المرء تكمن في وجود أصدقاء يهبّون لمساعدته متى دعت الحاجة وأينما كان.